سنوات الجحيم

أوراق مراسل
صحفي بالعراق

الفصل الثاني

الشيعة

obeikan.com

obeikan.com

١ - الشيعة.. ببساطة

يقول رائد علم الاجتماع العراقى الدكتور على الوردى إن النزاع بين الشيعة والسنة، اتخذ شكل التعصب لآل النبي من جهة،.. ولأصحاب النبي من الجهة الأخرى.. فأهل السنة تعصبوا للأصحاب، بينما تعصب الشيعة لآل النبى .. وأخذ كل فريق يغالي في تمجيد من تعصب لهم. التزم أهل السنة بالحديث النبوي القائل «إن أصحابي بمنزلة النجوم في السماء، فأيهم أخذتم به اهتديتم»، واختلاف أصحابي رحمة.. والتزم الشيعة من الجانب الآخر بالحديث القائل «إنما مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق».

أولئك جعلوا مقياس الفضيلة في الصحبة النبوية، وهؤلاء جعلوه في البيت العلوي.. اخذ أهل السنة يطلقون على الشيعة لقب "الروافض" باعتبار أنهم رفضوا الصحابة، بينما أطلق الشيعة، على أهل السنة"النواصب" باعتبار أنهم نصبوا العداء لأهل البيت وحالفوا اعداءهم الأمويين.. وبهذا تمادى الغلو من كلا الجانبين وأصبح داء اجتماعيا وبيلاً..

لم يكن الشيعة «روافض» في أول أمرهم.. وكذلك لم يكن أهل السنة «نواصب» وإنما هو التطرف والتعصب.. وسمما بالتراكم الفكري الذي أدى بهما إلى هذه النتيجة المحزنة.. وإذا أراد الشيعة وأهل السنة في هذا العصر أن يتحدوا، فليرجعوا إلى شعارهم القديم، الذي اتخذه زيد بن علي وأبو حنيفة. أي شعار«الثورة على الظلم في شتى صوره »لا فرق في ذلك بين الظالم الشيعي أو الظالم السني.

إن هدف الدين هو العدل الاجتماعي، وما الرجال فيه إلا وسائل لذلك الهدف العظيم .. جاء البويهيون إلى بغداد في القرن الرابع، فأضافوا بمجيئهم إلى الطنبور نغمة جديدة ..كان البويهيون من الشيعة، أما خلفاء بني العباس فكانوا من أهل السنة وبهذا اجتمعت في بغداد طائفتان من السلاطين.. خلفاء سنيون وأمراء شيعة، فأصبح البلاء بهذا الحكم المزدوج عظيما كان سلاطين الصوفيين لا يختلفون اختلافا أساسيا عن سلاطين العثمانيين.. كلهم يعبدون الله وينهبون عباد الله.. حدثت المفارقة الكبرى على ضفتي دجلة، فالإمام الأعظم مدفون على الضفة اليسرى. والإمام الكاظم مدفون على الضفة اليمنى، ونسيَ الناس أن إماميهما كانا من حزب واحد إذ كانا من أعداء السلاطين... عارض أبو حنيفة المنصور بنفس الشدة التي عارض بها موسى الكاظم حفيده هارون الرشيد.. وقد مات كلاهما في سجن هذين السلطانين الظالمين..

فرق السلاطين بينهما بعد الموت.. إذ لم يستطيعوا أن يفرقوا بينهما في الحياة.. ولله في خلقه شؤون..

قالوا : «إن السياسة ما دخلت في شيء إلا أفسدته» فدخلت وأفسدت مختلف المذاهب والأديان.

من هم الشيعة ؟ متى ولدوا ؟ وكيف تكونوا عبر التاريخ ؟ ما دورهم العقائدي والسياسي مع المسلمين ؟ وما مخططاتهم في يومنا الحاضر ؟

تحتاج الإجابة على هذه الأسئلة تفصيليا تأليف عدة كتب إلا أن طرحا مبسطا لتاريخ التشيع وملابسات نشوء المذهب يمكن أن يختصر الكثير من الوقت والجهد الذى إستغرق من وقتى مئات الساعات لقراءة عشرات الكتب التى تؤرخ وتبحث ماهية الشيعة ومذاهبها والتحولات التى أدت إلى حدوث التباسات كبرى بسبب ما أدخلته السياسة على المذهب وما بات يعرف بالتشيع العلوى والتشيع الصفوى .

بعد كفاح مرير استطاع الرسول الأمين محمد ^أن يؤسس نواة دولته بهجرته إلى يثرب أول مدينة تبايعه على النبوة والزعامة وبدأ بذلك التاريخ السياسي للإسلام في العام ٦٢٢ ميلادية والتى أصبح يطلق عليها حاليا « المدينة المنورة » .

وبعد ١١ عاما من هجرته توفي رسول الله تاركا دولة فتية، بعد أن أكمل لها المقومات الأساسية للنهوض والارتقاء بتركة كتاب الله وسنة نبيه مع جيل كامل من تلاميذه الذين رباهم على يديه وفق المنهج الأصيل واصطلح على تسميتهم الصحابة.

ونتيجة لفهمهم العميق باشر الصحابة فور وفاة نبيهم مناقشة حرة مفتوحة لاختيار خليفة لزعامة الدين والدولة ، وتم ترشيح رجل لم يخيب ظنهم وظن الأمة فيه ذلك هو الصديق أبو بكر .. وبعامين وشهرين حفر الخليفة الأول اسمه في سجل المجد وصار قبره بجوار قبر نبيه .

ولان الدولة كانت مشتبكة بفتوحات العدل لنشر الخير شاور الخليفة في مرضه الأخير الصحابة ليسلم الأمانة إلى عمر بن الخطاب ليصبح الخليفة الثاني.. فشرح الله على يديه قلوب الناس للحق،وفتحت جيوش الإسلام العراق والشام والقدس ومصر وغيرها ودمر نفوذ القوتين العظميين آنذاك الفرس والروم .

وبطعنات من خنجر مجوسي لا يزال قبره إلى اليوم مزارا مشهورا في إيران غادر الخليفة الثاني الحياة الدنيا شهيدا تاركا الأمر شورى بين ستة شهد لهم الأصحاب ومن قبلهم رسول الله بالكفاءة والتقوى هم علي وعثمان وعبد

الرحمن وسعد والزبير وطلحة .

وبعد مناقشة مستفيضة أجراها الستة اختير الثري القرشي الذي تبرع بماله أيام العسرة ليصبح خليفة المسلمين أيام التفوق والقدرة ، وليكمل الراشد عثمان بن عفان طريق تحرير البلدان وفتح العقول والقلوب للحق والهداية.

في السنة الأخيرة من خلافة عثمان بن عفان بدت في الأفق سمات التوتر وأخذت مجموعة من اليهود المتقمصين بالإسلام تتحين الفرصة للكيد والتآمر ومن هؤلاء عبد الله بن سبأ المعروف بابن سوداء وأخذ ينظم فريقا سريا لحملة ضد الخلافة مستغلا بعض أخطاء الأمراء وتساهل وطيبة الخليفة، واخذ فريقه يحث الناس على التوجه إلى المدينة لإثارة الفتنة وغشهم بكتب ادعى أنها وردت من بعض الصحابة تدعو لقتل من يحتج على سياسة الخليفة . .ثم اتفقوا على القيام بخطوتهم العملية بمهاجمة عثمان في المدينة المنورة.

وقرروا أن يأتوا من مراكزهم الثلاثة: مصر ــ حيث كان ابن سبأ ــ، والكوفة، والبصرة في موسم الحج وان يغادروا بلادهم في صورة الحجيج فإذا وصلوا المدينة تركوا الحجاج يذهبون إلى مكة لأداء المناسك واستغلوا فراغ المدينة من أهلها المشغولين بالحج.

وفي سنة ٣٥ من الهجرة قتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان في بيته بعد أن دامت خلافته اثني عشر عاماً إلا قليلا وقد شكلت هذه الحادثة أول مشكلة سياسية خطيرة تمر بها الدولة الإسلامية .

طلب المسلمون من علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه أن يكون الخليفة ولكنه اعتذر وقال لهم:(إني لكم وزير خير لكم مني أمير) ولكن الناس الحوا عليه وبذلك أصبح الخليفة الرابع وهنا تبدأ فصول إحداث معقدة عصفت بالمسلمين وما زالت إلى اليوم .

رأى أمير المؤمنين أن أفضل حل للأزمة في المدينة هو إخراج المتمردين منها، وأن أفضل مكان يتجه إليه هو العراق فتحرك بمن معه، ورافق رؤوس الفتنة ومشعلوها التحرك .

وأثناء ذلك وصل خبر مقتل عثمان إلى الأمصار، فتحركت مشاعر الناس مطالبين بالقصاص من قتلة عثمان.

وطالب كثير من الناس علياً بالقصاص من القتلة، ولكن عليا كان يرى أن لكل واحد منهم قبيلة وأتباع ولابد أنهم سيطالبون بدمه مما يؤدي إلى إشعال فتنة أكبر، لذلك كان رأيه تأجيل ذلك إلى حين استتباب الأمور.

كاتب أهل البصرة الصحابيين الكبيرين الزبير وطلحة وطلبوا منهم التوجه إلى البصرة ووعدوهما بالنصرة للقصاص من قتلة عثمان فخرج الصحابيان متوجهين بالجيش إلى الكوفة لمطالبة علي بتسليم قتلة عثمان فتحرك علي بمن معه لإيقاف هذه الحركة باعتبارها انشقاقا وتجاوزا على سلطة الخلافة .

وبعد مفاوضات اتفق الطرفان على تسليم القاتلين، ولكن رؤوس الفتنة أحسوا بالخطر فدبروا للإيقاع بين الفريقين وذلك بافتعال تراشق بالنبل اتهم بعدها كل فريق الآخر ببدئه ونجح الكيد واشتبك الجيشان في موقعة الجمل التى جرت وقائعها فى ١٠ جمادى الأولى عام ٣٦هـ، وقيل ١٠ جمادى الثانية و سُمِّيت المعركة بحرب الجمل؛ لأنّ زوجة الرسول عليه الصلاة والسلام عائشة كانت راكبة فيها جملاً إسمه عسكر .

٢ - معركة صفين

وفي الشام أرسل معاوية ابن أبى سفيان وهو ابن عم عثمان- فالاثنان من بني أمية- كتابا إلى أمير المؤمنين في الكوفة يسأله أن يمكنه من قتلة عثمان، لكن موقف علي كان واضحاً أن الوقت غير مناسب للقصاص وأن هذه بداية تمرد على مركز الخلافة وأمر بعزل معاوية الذي رفض الأمر بشدة ، وتوسع نفوذه بسرعة ، حتى تحرك بجيشه قاصداً الكوفة، التى تبعد عن بغداد حوالى ١٦٠ كيلومترًا جنوب بغداد وعندما وصلت أخبار تحرك معاوية إلى علي تحرك بجيشه والتقوا في مكان يدعى صفين عرفت الواقعة باسمه وحدثت معركة بين الطرفين في سنه ٣٩ هجرية، فضعفت كفة جيش معاوية فلجأ إلى رفع المصاحف على أسنة الرماح وعرَضَ التحكيم، فرضي أمير المؤمنين علي بن أبى طالب بذلك حقنا للدماء رغم أن جيشه كان المتفوق في تلك الفترة.

وتم اختيار الحكمين وهما عمرو بن العاص من جهة معاوية وأبو موسى الأشعرى عن الإمام على لكنهما لم يتفقا على شيء محدد سوى التواعد على جلسة مفاوضات أخرى.

الخوارج

رفض فريق من جيش الإمام على التحكيم و تمرد عليه وقال بردته لأنه حكم الرجال وترك تحكيم كتاب الله كما زعموا ، وعرف هؤلاء بالخوارج، وأصبحوا فرقة تهدد أمن الدولة الإسلامية مما حدا بعلي أن يرسل إليهم ابن عباس ليقيم

الحجة عليهم ولكن المحاولات لم تفلح بل أخذوا يعتدون على الناس مما اضطر عليا إلى مقاتلتهم في معركة النهروان فقتل الكثير منهم .

وبذلك يكون الخوارج أول تيار بدأ بانحرافات وأفكار عقائدية كالتكفير وحكم مرتكب الكبيرة ..الخ

وبينما كان علي مشغولا بمقاتلة الخوارج استطاع معاوية تكوين دولة قوية في بلاد الشام منفصلة عن الدولة المركزية.

وفي عام أربعين من الهجرة خرج عبد الرحمن بن ملجم وهو احد الخوارج في طلب الثأر لأصحابه الذين قتلوا في النهروان، و دخل المسجد متخفياً وضرب علي بن أبي طالب بسيف مسموم على رأسه مما أدى إلى استشهاد الخليفة الرابع في يوم ٢١ من رمضان متأثراً بتلك الضربة، بعد خلافة استمرت أربعة أعوام وتسعة أشهر.

٣ - ظهور مصطلح الشيعة

أدت الأحداث التي أعقبت تولي الإمام علي كرم الله وجهه الخلافة بعد مقتل عثمان بن عفان رضى الله عنهما وخروج المطالبين بقتلة عثمان واشتباك علي وجيشه معهم إلى انقسام الناس بين مناصر لعلي عرفوا بشيعة علي، وفريق المطالبين بالقصاص عرفوا بشيعة عثمان، وكان هذا أول انشقاق سياسي في الدولة الإسلامية وهو أول تسجيل للتشيع والتحزب داخل الأمة الواحدة.

وضاعف رؤوس الفتنة الهوة بين أبناء الأمة الواحدة مستغلين الانشقاق وعوامل الفتنة، وبدأ الجدل حول من هو أفضل علي أم عثمان.

وكان هذا الانقسام سياسيا بحتا ولم يحمل أي بعد عقائدي وبهذا المعنى فان كل من يحمل مسمى شيعي في القرن الأول هو ذو موقف سياسي أو عسكري في النزاع داخل الصف الإسلامي وليس ذو توجه عقائدي ،ونستطيع الآن أن نفهم كيف أن رواة الحديث السنة يستدلون في رواياتهم عن أشخاص يطلق عليهم تسمية شيعة .

٤ - تاريخ

نظراً لأهمية هذا الموضوع الذي شق المسلمين، ومازال تأثيره العميق باقياً إلى الآن، ولإعطاء صورة واضحة عما جرى في يوم وفاة النبي، ننقل هنا مقتطفات مما جاء في تاريخ الطبري

«ولما اشتد المرض برسول الله ﷺ قال: « ائتوني باللوح والدواة- أو بالكتف

والدواة- أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده ». فقالوا: أن رسول الله يَهْجُر، (أي كلام من تأثير الحمى).

«وعن ابن عباس أن علي بن أبي طالب خرج من عند رسول الله ﷺ في وجعه الذي توفي فيه، فقال الناس: يا أبا الحسن، كيف أصبح رسول الله؟ قال أصبح بحمد الله بارئاً، فأخذ بيده عباس بن عبد المطلب، فقال: إني أرى رسول الله سيتوفى في وجعه هذا، وإني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت، فاذهب إلى رسول الله فسله فيمن يكون هذا الأمر؟ فإن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا أمر به فأوص بنا. قال عليٌ: والله لئن سألناها رسول الله فمنعناها لا يعطيناها الناس أبداً، والله لا أسألها رسول الله أبداً.

«ولما توفي الرسول ﷺ، اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة ليبايعوا سعد بن عبادة، فبلغ ذلك أبا بكر، فأتاهم ومعه عمر، وأبو عبيدة بن الجراح، فقال: ما هذا؟ فقالوا: منا أمير ومنكم أمير، فقال أبو بكر: منا الأمراء ومنكم الوزراء. ثم قال أبو بكر: إني قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين: عمر أو أبا عبيدة، أن النبي ﷺ جاءه قومٌ فقالوا أبعث معنا أميناً فقال: لأبعثن معكم أميناً حق أمين، فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح، وأنا أرضى لكم أبا عبيدة. فقام عمر، فقال: أيكم تطيب نفسه أن يخلُف قدمين قدَّمهما النبي ﷺ! فبايعه عمر وبايعه الناس، فقالت الأنصار- أو بعض الأنصار- لا نبايع إلا عليّاً.

«وتخلف عليٌ والزبير (عن ذلك الاجتماع)، واخترط الزبير سيفه، وقال: لا أغمده حتى يُبايَع عليٌ، فبلغ ذلك أبا بكر وعمر، فقال عمر: خذوا سيف الزبير، فاضربوا به الحجر. قال: فانطلق إليهم عمر، فجاء بهما تعباً، وقال: لتبايعان وأنتما طائعان، أو تبايعان وأنتما كارهان! فبايعا». (تاريخ الطبري، ج٢، ص ٢٢٩-٢٣٤).

وعن محاولة أبي سفيان في الصيد بالماء العكر، يقول الطبري: «ولما اجتمع الناس على بيعة أبي بكر، أقبل أبو سفيان (إلى علي بن أبي طالب)، وهو يقول: والله إني لأرى عجاجة لا يطفئها إلا الدم! يا آل عبد مناف فيم أبو بكر من أموركم! أين المستضعفان! الأذلان عليّ والعباس! وقال: أبا حسن! ابسط يدك حتى أبايعك. فزجره عليٌ، وقال: إنك والله ما أردت بهذا إلا الفتنة، وإنك والله طالما بغيت الإسلام شراً لا حاجة لنا في نصيحتك». (الطبري، نفس المصدر، ص ٢٣٧).

والجدير بالذكر أن الإسلام قد أقام نظام الشورى، إذ قال تعالى: «وشاورهم في الأمر»، وكان النبي ﷺ يشاور المسلمين في معظم الأمور، ولكنه لم يترك قاعدة

واضحة وثابتة لاختيار الخليفة من بعده.

ويبرر العلامة أحمد أمين موقف النبي من ذلك بقوله: «... وترك الأمر مفتوحاً لأنه لو وضع قاعدة فيه لاتخذها المسلمون ديناً يتحجرون عليه. فلما مات النبي حصل هذا الاختلاف فبايع عمر أبا بكر ثم بايعه الناس وكان في هذا مخالفة لركن الشورى ولذلك قال عمر (فيما بعد) :إنها غلطة وقىَ الله المسلمين شرها. وكذلك كانت غلطة بيعة أبي بكر لعمر وإن كان قد استشار كبار الصحابة في ذلك فبعضهم حمده وبعضهم خاف من شدته فقال أبو بكر إنه يراني ألين فيشتد». (أحمد أمين، يوم الإسلام، ص٥٣-٥٤)

وفي الجدال الذي دار بين المسلمين في سقيفة بني ساعدة حول الخلافة، استشهد أبو بكر بقول أسنده إلى النبي: (الخلافة في قريش)، ثم دب الخلاف بين المهاجرين أنفسهم، فمنهم من رأى أبا بكر أولى بالخلافة، وكان عمر بن الخطاب هو الذي رشحه ودعمه لهذا الأمر، ومنهم من رأى علي بن أبي طالب أولى بالخلافة لقرابته من النبي، فهو ابن عمه وزوج ابنته فاطمة، ويعتقد الشيعة (وبعض السنة) أن النبيﷺ أوصى في خطبة الوداع لعلي بقوله: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم والِ من والاه وعادي من عاداه»، والتي سميت بخطبة الغدير، في مكان سمي بغدير خم يقع في منتصف الطريق بين مكة والمدينة.

وكان عمار بن ياسر من المطالبين بإسناد الخلافة إلى علي، وعارضه آخرون. وكان الإمام علي منشغلاً في تلك الإثناء بدفن جثمان النبي ﷺ ولم يكن حاضراً لاجتماع سقيفة بني ساعدة.

ويضيف أحمد أمين: « على كل حال، اتسعت هوة الخلاف، فلما علِمَ أبو بكر وعمر باجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة ذهبا إليها، وخطب أبو بكر خطبة موفقة اقنع فيها الأنصار بأولوية المهاجرين الأولين، وبذلك كُفيَ المهاجرون خلاف الأنصار، ثم كان أن كُفي أبو بكر أمر عليّ، فقد كره كثير من الصحابة أن يجمع بين النبوّة والخلافة، ولعلمهم بشدة عليّ في الحق وعدم التساهل.» (أحمد أمين، نفس المصدر، ص٥١).

وهكذا أسندت الخلافة إلى أبي بكر، ولما علم الإمام علي بما جرى في سقيفة بني ساعدة، وأن المهاجرين تمسكوا بأولوية قريش في الخلافة لقرابتهم من النبي، قال والله «تمسكوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة»، يعني أنهم اتخذوا القرابة من النبي حجة لهم ولكنهم منعوه هو من الخلافة. (أحمد أمين نفس المصدر).

على أي حال ومهما كان من أمر، فقد بايع الإمام علي أبا بكر بعد ستة أشهر من وفاة الرسول وبعد وفاة زوجته فاطمة، لأنها (فاطمة) لم تكن على وئام مع أبي بكر حيث منعها من حقها في فدك، إذ تمسك بقول أنه سمع رسول الله يقول: «نحن معشر الأنبياء لا نورث وما نتركه صدقة، ولم تنتقل فدك إلى أهل البيت إلا في عهد الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز.

ومهما يكن من أمر، فقد بقي الإمام علي وفياً للخلفاء الثلاثة الذين سبقوه. ولقد وقف عليّ بباب أبي بكر ساعة وفاته ونعاه قائلا: «يرحمك الله يا أبا بكر، لقد كنت والله أول القوم إسلاما صدقت رسول الله ﷺ حين كذّبه الناس، وواسيته حين بخلوا، وقمت معه حين قعدوا » (أحمد أمين، نفس المصدر)

وقد دامت خلافة أبي بكر عامين، ثم أوصى بها قبل وفاته إلى عمر بن الخطاب، والذي بدوره أوصى وهو على فراش الموت بتشكيل مجلس شورى من ستة أشخاص من الصحابة الكبار، ليختاروا واحداً من بينهم، فاختاروا عثمان بن عفان، بعد أن تعهد لهم بالالتزام بنهج الشيخين، أبي بكر وعمر. وقد نفذ وعده هذا خلال السنوات الست الأولى من خلافته، ولكنه شذّ عنه في السنوات الست الأخيرة حيث انحاز إلى أقربائه من بني أمية ففضلهم على بقية المسلمين في السلطة والمال والنفوذ. وقد برر عثمان فيما أعطى لذوي قرابته من بيت المال فقال: «إن عمر كان يحرم قرابته احتساباً لله، وأنا أعطى قرابتي احتساباً لله، ومن لنا بمثل عمر؟» (طه حسين، الفتنة الكبرى، ج١، ص٤٢). وهذا الانحياز لقرابته أثار عليه نقمة المسلمين من مختلف الأمصار، فثاروا عليه وقتلوه.

وبعد مقتل عثمان انتخب الثوار علياً خليفة، وبايعه الناس بمن فيهم طلحة والزبير. ويقول طه حسين في هذا الخصوص في كتابه (الفتنة الكبرى، علي وبنوه،ج٢):«... فقد كان خليفتهم الجديد أجدر الناس بأن يملأ قلوبهم طمأنة، وضمائرهم رضىً ونفوسهم أملاً. فهو ابن عم النبي ﷺ وأسبق الناس إلى الإسلام بعد خديجة، وأول من صلى مع النبي من الرجال، وهو ربيب النبي قبل أن يُظهر دعوته ويصدع بأمر الله.... وكان النبي يحبه أشد الحب ويؤثره أشد الإيثار، استخلفه حين هاجر على ما كان عنده من ودائع حتى ردها إلى أصحابها، وأمره فنام في مضجعه ليلة ائتمرت قريش بقتله، ثم هاجر حتى لحق بالنبي ﷺ في المدينة فآخى النبي بينه وبين نفسه، ثم زوجه ابنته فاطمة، ثم شهد مع النبي مشاهده كلها، وكان صاحب رايته في أيام اليأس. وقال النبي ﷺ يوم خيبر:

«لأعطينَّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله». فلما أصبح دفع الراية إلى عليّ. وقال النبي حين استخلفه على المدينة يوم سار إلى غزوة تبوك: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي». وقال للمسلمين في طريقه إلى حجة الوداع: «من كنت مولاه فعلي مولاه. اللهم وال من والاه وعاد من عاده».

ويضيف طه حسين فيقول: «وكان عمر رحمه الله يعرف لعليّ علمه وفقهه ويقول «إن علياً أقضانا». وكان يفزع إليه في كل ما يعرض له من مشكلات الحكم. وقال حين أوصى بالشورى: « لو ولّوها الأجلح لحملهم على الجادة.» إلى فضائل كثيرة يعرفها له أصحاب النبي على اختلافهم، ويعرفها له خيار المسلمين التابعين، ويؤمن له بها أهل السنة كما يؤمن له بها الشيعة». (طه حسين، الفتنة الكبرى، ج٢، ص ١٥-١٦).

ولكن رغم كل هذه الفضائل لعلي، تمردّ عليه كثيرون ومنهم من بايعوه مثل طلحة والزبير. وقد اتخذ بنو أمية وعلى رأسهم معاوية بن أبي سفيان مقتل عثمان ذريعة لنيل الخلافة لأنفسهم، فقاموا بمطالبة علي بالكشف عن قتلة عثمان والانتقام منهم، الأمر الذي لم يكن بإمكانه تنفيذه لعدم معرفة القاتل الحقيقي في خضم تلك الثورة، وكان محمد بن أبي بكر أحد المتهمين بقتل عثمان. فأعلن معاوية، الذي كان والياً على الشام، التمرد على الخليفة.

ومما يجدر ذكره في هذا الخصوص، أن سئل الإمام عليّ في رأيه في عثمان وقاتليه فقال: «إنه استأثر فأساء الأثرة، وجزعوا فأساءوا الجزع، ولله حكم واقع، في المستأثر والجازع». ويعلق أحمد أمين قائلاً: ولعل هذا أصدق وصف لما كان بين عثمان والناقمين عليه، وهو كذلك أصدق وصف للأمويين والعباسيين، والناقمين عليهم من الشيعيين. (أحمد أمين، ضحى الإسلام ج٣، ص ٣٠٠).

٥ - العراق الشيعي

عرف العراق كونه متشيعا لعلي بن أبي طالب، بعد معركة الجمل، التي دارت رحاها على أرض البصرة، بين جيش علي كرم الله وجهه المكون أساسا من أهالي البصرة والكوفة وبين الجيش القادم من مكة بقيادة طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعائشة بنت أبي بكر.

بدأ التشيع أساسا في البصرة والكوفة ومن ثم انتشر إلى مناطق العراق الأخرى وبقية البقاع المجاورة، وكان لشيعة العراق الدور الهام في نشر التشيع في مكة والمدينة وبغداد والري وبخارى وخراسان واليمن والبحرين. ومثال على ذلك: المحدث البصري معمر بن راشد الأزدي سكن اليمن عشرين عاما وهو من اصحاب الإمام الصادق«٥»

أعيان الشيعة ٢: ٣١٢،معجم رجال الحديث ١٨: ٢٦٤

وجعفر بن سليمان الضبعي البصري، ويقول أحمد بن حنبل: قدم جعفر بن سليمان عليهم بصنعاء فحدثهم حديثا كثيراً، وكان عبد الصمد بن معقل يجيئ فيجلس اليه «٦». تهذيب الكمال ٥: ٤٦

وقد لعبت الحكومات المتتابعه على العراق منذ أن دخل الإسلام إلى العراق دورا كبيرا في تشويه ومحاربة التشيع ومنع انتشاره ومحاولة اقتصار التشيع على الكوفة فقط، ولهذا فلم تكن العلاقة بين الشيعة واغلب الحكومات المتعاقبة جيدة إطلاقا «٧»«٨» «٩» ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها ج٢ ص ١٠

أ ب السالنامة العثمانية الخاصة بولاية البصرة لسنة: ١٣٠٩هـ

مدرسة الحديث في البصره ٣٢-٣٣

يذكر العلامة المظفر قائلا: مهما أجتهدوا في جعل العراق أمويا كانت تلك الجهود فاشلة، وكانت الروح السائدة عليه هاشمية وعلوية خالصة إلا في البصرة في عهود قليلة «١٠». تاريخ الشيعة ٧٦

ولم تمض السنون حتى تغلب حب أهل البيت في البصرة على المشايعة لبني أمية فعادت علوية شيعية، فهي اليوم ومن قبل اليوم بقرون شيعة، ويوجد في البصرة على غير مذهب أهل البيت نفر أن قلو في العدد إلا إنهم كثيرون بالمال والملك«١١». تاريخ الشيعة١١٣ .

٦ - الامام الحسن

بعد مقتل الامام علي رضى الله عنه بايع أهل المدينة و الكوفة الحسن بن علي أميراً للمؤمنين بينما بايع أهل الشام معاوية أميراً.

وكان الحسن يميل إلى الصلح مع معاوية حقناً لدماء المسلمين ولكنه لم يصرح بذلك في بداية الأمر لعلمه بطبيعة أهل العراق، ووسط إلحاحهم وإظهارهم الاستعداد لمقاتلة أهل الشام، تحرك الحسن بالجيش فلما تقارب الخصمان بدءا مفاوضات اظهر فيها الحسن نيته الصلح وتنازل فعلا عن الخلافة شرط أن يعود الأمر شورى بين المسلمين بعد وفاة معاوية فسمي ذلك العام بعام الجماعة

دامت خلافة الحسن ستة أشهر تقريباً وبذلك انتهت فترة الخلافة الراشدة مصداقا لما أشار إليه الحديث النبوي أنها ستكون ثلاثين سنة.

تسلم معاوية الخلافة عام ٤١هـ واتخذ دمشق عاصمة جديدة و في العام ٥٠ للهجرة توفي الحسن بن علي مسموماً وبذلك خلت الساحة من منافس لسلطة معاوية بن أبي سفيان .

٧ - دم الإمام وسيف الخليفة

في سنة ٦٠ هجرية توفي معاوية بعد أن أسند قبل وفاته ولاية العهد إلى ابنه يزيد وأخذ له البيعة خلافا لما تم الاتفاق عليه مع الإمام الحسن بن على بن أبى طالب عليهما السلام ، ولهذا امتنع الإمام الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير بن العوام عن البيعة ليزيد الذى عرف بالبغى والسفه ، وهناك من هو أحق منه بخلافة المسلمين التى تتطلب الكثير من المقاييس لم تتوافر فى يزيد بن معاوية .

أشار أهل العراق على الإمام الحسين بالقدوم ووعدوه النصرة إذا أراد الخروج على يزيد لأنه وصل إلى الحكم دون شورى ولا اختيار من أهل الحل والعقد وأن هذه طريقة غير شرعية فقرر الحسين التوجه إلى العراق رغم أن الكثير من الصحابة في المدينة المنورة نصحوه بعدم الخروج وحذروه من غدر أهل العراق به ولكنه لم يستمع لهم فقد كان عنده مئات الرسائل تسأله القدوم وتعده النصرة.

وفي مطلع سنة ٦١ هـ تحرك الحسين بأهله رجالا ونساءً وأطفالاً متجهاً إلى العراق ونزل بمكان يدعى «الطف »، وهناك دارت مأساة شهيد كربلاء لينتهى الأمر باستشهاد الإمام الحسين وسبعين رجلا من أهل بيته في ذلك اليوم ، ولكن الله قدر أن ينجو رجل واحدا فقط من بيت الحسين هو الإمام الرابع زين العابدين الملقب بالسجاد الذي كان مريضا ساعة المعركة وبعد أربع سنوات من حكم يزيد تصل الخلافة إلى شيخ بني أمية مروان بن الحكم .

شكك عبد الله بن الزبير في شرعية السلطة الأموية وأعلن التمرد وسيطر على مكة وتوفي مروان بن الحكم فاستلم السلطة ابنه عبد الملك وظهر في الكوفة المختار بن عبيد الله الثقفي، وجمع من حوله «شيعة علي» وراح يتتبع قتلة الامام الحسين هنا وهناك ، وراح يدعو لمحمد ابن على بن أبى طالب (محمد بن الحنفية) وبناديه بالإمام المهدي.

أغضبت الدعوة باسم محمد بن الحنفية «عبد الله بن الزبير» فأرسل أخاه «مصعب بن الزبير»؛ ليكون أميرا على العراق، وأمره بالقضاء على «المختار الثقفى».

ونجح مصعب فى حصار المختار بالكوفة وقتله، وأصبح الحجاز والعراق لابن

الزبير ومصر والشام لعبد الملك بن مروان،الذي تحرك جيشه بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي من الطائف إلى مكة فحاصرها وظل يضيق على ابن الزبير حتى قتل سنة ٧٣هـ واستمرت خلافته تسعة أعوام وبمقتل ابن الزبير دخلت الحجاز من جديد تحت حكم بنى أمية،

٨ - زيد والرافضة

في زمن هشام بن عبد الملك ثار زيد بن علي بن الحسين واتصل بالفقيه أبو حنيفة النعمان الذي أيده وقال: (هو والله صاحب حق) وقد سمي السبئية في عهد زيد بالرافضة لانهم رفضوا إمامته ، كونه رضي بولاية أبي بكر وعمر وترحم لهما وانتهت ثورة زيد بن الحسين بتمكن الجيش الأموي منه فقتل وصلب.

تعاقب بعد هشام بن عبد الملك أربعة من الخلفاء الأمويين عجزوا عن ممارسة السلطان، وأتاحوا الفرصة لعوامل الهدم والاضمحلال، فراحت الدولة الأموية تتهاوى لتسقط سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م فاسحة المجال لعهد جديد دشنه بنو العباس .

٩ - الخلافة العباسية

بدأت حقبة جديدة بتشكيلة مختلفة من التحالفات مؤسسة على بعد جديد في الولاية والحكم يتزعمها اناس ادعوا الصلة المباشرة ببيت النبوة (العباس عم النبي تحديدا)، وهم ابناء علي بن عبد الله بن عباس، الذين حصلوا على تاييد الناس خصوصا بعد الانحرافات التي ظهرت في نهاية العهد الأموي.

وأدى قيام دولة بني العباس على أساس القرابة بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم إلى خوفهم من منافس اكثر صلة منهم بالبيت النبوي وربما يشكل تهديدا حقيقيا لهم خصوصا وانه يمتلك منزلة في قلوب الناس اكبر منهم ولذلك هو اقدر على جذب الجماهير وكسب ولائهم وهم العلويون (احفاد علي بن طالب» الحسنيون والحسينيون »وهذا ما حصل فعلا في المرحلة اللاحقة بين العباسيين والعلويين الذين كانوا يثورون لأنهم رأوا أحقيتهم بالخلافة لقرابتهم من بيت النبي.

١٠ - ثورة (النفس الزكية)

في عام ١٤٥هـ خرج محمد بن الحسن الملقب بالنفس الزكية بالمدينة وأخوه

إبراهيم في البصرة، ولما تمكن من المدينة بايعه جمع من العلماء يروى أن منهم الإمام مالك الذي أفتى الناسَ بمبايعته وتلقب محمد بن الحسن بالمهدي طمعاً منه أن يجذب قلوب وطاعة الجماهير ، ولكن المنصور العباسي قرر أن يلقن أهالي البصرة درسا قاسيا بسبب إسنادهم لإبراهيم فأرسل إلى عاصمة العراق الجنوبية المدعو سلم بن قتيبة وفوض إليه أن يعاقب بلا رحمة جميع من اشترك في الانتفاضة من السكان، وعندما تباطأ العامل في تنفيذ هذا الأمر القاسي استدعي على الفور واستبدل بمحمد من سليمان وقد نفذ هذا تعليمات الخليفة بدقة فقد هدم ما يقارب ثلاثين ألف دار ودمر أكثر من عشرين ألف نخلة يملكها أنصار إبراهيم، كما أنه اعدم خمسة وخمسين شخصا من الوجهاء المحليين وأرسل ما لا يقل عن خمسمائة آخرين مكبلين بالأغلال إلى بغداد لكي يقتص منهم الخليفة بنفسه - «٨» أ ب السالنامة العثمانية الخاصة بولاية البصرة لسنة: ١٣٠٩هـ في شهر رمضان سنة ١٤٥هـ .

١١ - الدولة البويهية

في عام ٣٢٢هـ ظهر نفوذ « بني بويه» وهم نسل من سلالة ملوك الفرس الساسانيين وقد اعتنقوا الجيل الأول من فكر التشيع العقائدي ووصل نفوذهم إلى بغداد حيث آلت الأمور إليهم فصاروا يخلعون ويعينون الخليفة متى يشاءون وفي ذلك الوقت بدأ التشيع العقائدي يخرج من الأقبية والغرف المغلقة إلى العلانية والجهر مدعوما بقوة الدولة والسلطان وللمرة الأولى في التاريخ.

ابتدع البويهيون ما يسمى اليوم بالشعائر الحسينية وبما في ذلك اللطم والنياحة والتطبير ، كما أظهروا الطعن واللعن على الصحابة وقاموا بالتوجيه لإنشاء أماكن لنشر هذه الأفكار وتطويرها فأنشئت ما تعرف اليوم بالحوزة العلمية.

تتوزع فرق الشيعة إلى أكثر من مذهب أكبرها هى الشيعة الاثنى عشرية وهى المنتشرة بالعراق والجارة ايران تليها الشيعة الزيدية والاسماعيلية .

١٢ - الاثنى عشرية / الجعفرية / الإمامية

الشيعة الإمامية أو الاثنى عشرية أو الجعفرية هم الفرقة الذين قالوا أن عليًا هو الأحق في وراثة الخلافة دون الشيخين / أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب / وعثمان رضي الله عنهم أجمعين وقد أطلق عليهم الإمامية لأنهم جعلوا من الإمامة القضية الأساسية التي تشغلهم وسُمُّوا بالإثنى عشرية لأنهم قالوا بإثني

عشر إماماً غاب آخرهم وهو المهدى المنتظر عجل الله فرجه كما يسمون بالجعفرية لأنه ينسب إلى إمامهم السادس جعفر الصادق تثبيته دعائم المذهب حيث استمرت إمامته ٣٤ عاما وينسب إلى الإمام الصادق عدد من الكتب لم يصل إلينا منها شيء، مثل: «كتاب الرد على القدرية»، وكتاب «الرد على الخوارج»، وكتاب «الرد على الغلاة من الروافض»، بالإضافة إلى بعض الرسائل التي كان يمليها على تلاميذه، ومنها وصاياه إلى ابنه موسى الكاظم، ورسالة في شرائع الدين، ورسالة إلى أصحاب الرأي والقياس، وتنسب إليه رسائل في الكيمياء جمعها تلميذه جابر بن حيان، وقد روت الشيعة عنه الكثير، حتى صنفوا من إجاباته عن المسائل كتباً كثيرة سموها «الأصول»، فالمعروف أنه لم يرو عن أحد من أهل بيت النبي ﷺ ما روي عن جعفر الصادق .

كما أنهم القسم المقابل لأهل السنة والجماعة في فكرهم وآرائهم المتميزة، وهم يعملون لنشر مذهبهم ليعم العالم الإسلامي.

والمعروف أن الإمام المعصوم عند الشيعة الاثني عشرية هو أحد الأئمة الاثني عشر من نسل الإمام الأول علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)وفاطمة الزهراء (رضي الله عنها)بنت محمد ﷺ الذين توارثوا العلم والحكمة عن النبي محمد وعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، وهم حسب اعتقاد متبعيهم أئمة معصومين في التبليغ عصمة الأنبياء، وكلامهم تشريعي يعتبر بمثابة الحديث النبوي في تفسير الآيات القرآنية والأحاديث النبوية .. وبذلك يشمل كتب الحديث عند الشيعة: حديث النبي ﷺ الذي يكون منقولا على السنة الأئمة أو أحاديث الأئمة أنفسهم أيضا، لقول الإمام جعفر الصادق (رضي الله عنه): «حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدّي، وحديث جدّي حديث عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين(رضي الله عنه)، وحديث أمير المؤمنين (رضي الله عنه)حديث رسول الله ﷺ، وحديث رسول الله ﷺ حديث الله عزّ وجلّ »، وتذكر المصادر الشيعية أن مصدر التلقي عند هؤلاء الأئمة (رضي الله عنهم)من مصدر الهي وهو الوحي (ليس بوحي الشريعة لأنه مختص فقط الانبياء وانما هو علم لدني، والقرآن يذكر أن الله عز وجل قد أوحى إلى مريم (رضي الله عنها)وام موسى (ع)و الخضر(رضي الله عنه)) ومصدر نقلي وهي كتب ومدونات يتناقلها الإمام (ع)إلى من ينص عليه، إلا أن التاريخ يشير إلى حيرة الشيعة بعد وفاة كل من هؤلاء الأئمة في اتباع الإمام المنصوص عليه بعده مما يجعل أصل وجود مثل هذه المدونات أو نص كل إمام على من يليه لينقل العلم إليه دون أخوته مسائل تحتاج إلى مزيد بحث (في الحقيقة هي حيرة غير الشيعة،

لان الائمة (ﷺ)حاولوا في بعض الأوقات أن يحيطوا الإمام التالي ببعض الغموض مخافة قتله من قبل النظام الحاكم حتى لاتخلوا الأرض من حجة لله وهو في الحقيقة تدبير الهي مثال ذلك الامام جعفر الصادق (ﷺ)وهارون العباسي).

وقد ورد عند الشيعة أن رسول اللهﷺ قال لعلي بن أبي طالب(ﷺ) :«الأئمة من بعدي إثنا عشر، أولهم أنت يا علي، وآخرهم القائم الذي يفتح الله تبارك والله ذكره على يديه مشارق الأرض ومغاربها» من كتاب «الإمام علي (ﷺ)» - أحمد الرحماني الهمداني - صفحة ١٢٨ الحديث ١٣.

١٣ - الأئمة الـ١٢

علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي يلقبونه بالمرتضى ـ رابع الخلفاء الراشدين، وصهر رسول الله ﷺ، وقد مات غيلةً حينما أقدم الخارجي عبد الرحمن بن ملجم على قتله في مسجد الكوفة في ١٧ رمضان سنة ٤٠ هـ.

ـ الحسن بن علي رضي الله عنهما، ويلقبونه بالمجبتى (٣ ـ ٥٠هـ).

ـ الحسين بن علي رضي الله عنهما ويلقبونه بالشهيد (٤ ـ ٦١هـ).

ـ علي زين العابدين بن الحسين (٣٨ ـ ٩٥ هـ) الناجى الوحيد من مذبحة كربلاء ويلقبونه بالسجّاد.

ـ محمد الباقر بن علي زين العابدين (٥٧ ـ ١١٤هـ) ويلقبونه بالباقر.

ـ جعفر الصادق بن محمد الباقر (٨٣ ـ ١٤٨هـ) ويلقبونه بالصادق.

ـ موسى الكاظم بن جعفر الصادق (١٢٨ ـ ١٨٣هـ) ويلقبونه بالكاظم.

ـ علي الرضا بن موسى الكاظم (١٤٨ ـ ٢٠٣ هـ)ومرقده في إيران ويلقبونه بالرضى.

ـ محمد الجواد بن علي الرضا (١٩٥ ـ ٢٢٠هـ) ويلقبونه بالتقي.

ـ علي الهادي بن محمد الجواد (٢١٢ ـ ٢٥٤هـ) ويلقبونه بالنقي.

ـ الحسن العسكري بن علي عبد الهادي (٢٣٢ ـ ٢٦٠هـ) ويلقبونه بالزكي.

ويطلق على الامامين العاشر والحادى عشر (الامامين العسكريين)

ـ محمد المهدي بن الحسن العسكري (٢٥٦هـ ـ ...) ويلقبونه بالحجة القائم المنتظر. حيث غاب بعد أن دخل سردابًا في دار أبيه في / سُرَّ مَنْ رأى / سامراء ولم يعد، وقد اختلفوا في سِنّه ووقت اختفائه فقيل أربع سنوات وقيل :ثماني سنوات، وهو (المهدي المنتظر) (عج)مدة إمامته ممتدة لأن الشيعة الاثني عشرية

يعتقدون أنه حي ومرتقب الظهور (٨٧٤ —...)

والمعروف لدى الشيعة أن مهدي الزمان المنتظر أصبح يتصل بالناس عبر السفراء واطلقوا تسمية الغيبة الصغرى على هذه القصة .

١٤ - سفراء الإمام الغائب

تفوق أربعة اشخاص بالسفارة عن المهدي المنتظر دون ما يقارب عشرين شخصا، وهم عثمان بن سعيد العمري ثم ابنه محمد ثم الحسين بن روح النوبختي ثم علي بن محمد السمري وهو آخر السفراء عن المهدي الغائب باعتبار أن الإمام غاب غيبته الكبرى، عام٣٢٩هـ.

وكان للسفراء الأربعة دور كبير في تطور التشيع العقائدي ونشر أفكاره، فبدأت في زمن الغيبة الصغرى حركة التأليف الشيعي العقدي، عن طريق ما يعرف بالتوقيعات التي كان ينقلها السفراء الأربعة عن المهدي المنتظر وكانت تضم تعليمات وفتاوى عن الإمام.

وفي هذا العهد كتبت الكتب الأربعة الأهم لدى الشيعة والتي يعتبرونها كأصول لمذهبهم وهي الكافي للكليني والتهذيب والاستبصار للطوسي وفقيه من لا يحضره الفقيه للصدوق، وتعتبر هذه الكتب أهم مصادر الحديث والروايات لدى الشيعة .

والمعروف أن حركة التأليف وتدوين الحديث الشيعية تأخرت عن مثيلتها السنية ما يقارب قرنين من الزمان، فقد بدأت حركة تدوين الحديث عند السنة منذ زمن الإمام مالك ٩٣-١٧٩هـ. بينما تأخرت حركة التدوين والتأليف الشيعية حتى زمن الغيبة الصغرى ٢٦٠-٣٢٩هـ

١٥ - الزيدية

بعد مقتل الإمام الحسين بن علي ثالث أئمة الشيعة وبعد وفاة ابنه علي زين العابدين / السجاد /الذي كان له ولدان محوريان هما زيد بن علي ومحمد الباقر خرج زيد على الأمويين والتف حوله جمع من الناس من الشيعة وغيرهم، ويقضي زيد أيضا أنفاسه الأخيرة بعد قصة مأساوية لا تختلف كثيرا عن قصة جده الإمام الحسين، وبعد وفاته تنفصل طائفة عن الشيعة ولاترى الإمامة لمحمد الباقر الذي كان الشيعة يعتبرونه إمامهم حتى في حياة زيد وعرفت هذه الطائفة بالزيدية نسبة إلى زيد بن علي واختلفت هذه الطائفة الموجودة إلى يومنا عن باقي

الشيعة انها رأت أن الإمامة ليست بالنص على شخص محدد وإنما الإمامة هي لأي شخص من نسل علي بن أبي طالب يخرج طالبا لها ويعتبر من أئمتهم يحيى بن زيد بن علي وأيضا محمد النفس الزكية وغيره.

وتعتبر الزيديه قريبة من المذهب السني لأخذها بفقه المذهب الشافعي.الذي يعد بدوره أقرب المذاهب السنية للشيعة وتنتشر باليمن .

١٦ - الإسماعيلية

بعد وفاة الإمام جعفر الصادق / سادس أئمة الشيعة/ التف الشيعة حول ولده موسى الكاظم ولكن بعض الشيعة أعلنوا أن الإمام كان إسماعيل بن جعفر الصادق وان مات في حياة أبيه فإن الإمامة في نسله ورفضوا إمامة موسى الكاظم. وظهر ثاني انقسام وهو ما يعرف بالطائفة الإسماعيلية التي حدث بها انشقاق هي الأخرى إلى فرعين (نزارية – مستعلية) وما زالتا موجودتين .

واشتهر الإسماعيليون بنشاطهم ، بل استطاعوا ولأول مرة بعد مقتل الإمام على ابن أبي طالب تأسيس دولة شيعية بخلافة شيعية يرأسها أئمة ظهروا بعد نجاح دعوتهم السرية قائلين إنهم من ذرية علي بن أبي طالب ، وهي الدولة الفاطمية التى بدأت في شمال أفريقيا ووصلت إلى مصر وأسسوا العاصمة القاهرة التى كانت أكبر مدن العالم آنذاك. يوجد الإسماعيلون فى نجران جنوب المملكة العربية السعودية وفي الهند وغيرها من البلدان .

١٧ - الصفوية والتشيع

كان الشاه إسماعيل الصفوي قد توجّه بجيش كثيف إلى بغداد، ودخلها سنة ٩١٤هـ/١٥٠٨م وفتك بأهلها وأهان علماءها وخرّب مساجدها وجعلها اصطبلات لخيوله وهدم ما كان فيها من قبور أئمة السنة، وذبح جماعة من علمائهم.. فسرت شائعة في البلاد التركية بأن مذبحة عظيمة أصابت المسلمين السنة في بغداد على يد الصفويين، وعامل الشاه غير المسلمين معاملة أكثر صرامة، ثم زار العتبات المقدسة في الفرات واصلح نهرا من الأنهر وأسماه نهر الشاه، وشيد بناية ضخمة على قبر موسى الكاظم ، وقد هزمه السلطان سليم الأول في معركة جالديران عام ٩٢٠هـ/١٥١٤م ودخل عاصمته تبريز ولكنه لم يدخل بغداد بسبب تمرد العسكر وعاد إلى الشام. فبقيت بغداد بيد الصفويين حتى عام ٩٤٠هـ/١٥٣٤م.

وفي عام ٩٣٥هـ/١٥٢٩م استغل الشاه الصفوي « طهماسب « حصار السلطان سليمان القانوني لفيينا فاسترد تبريز من العثمانيين مما حدا بسليمان القانوني أن يوقف زحفه في أوروبا، وعاد بقسم من الجيش لمحاربة الصفويين وتأديبهم"١٧" تاريخ الدولة العثمانية، محمد فريد بك، ص٩٠ فدخل تبريز أولا ثم بغداد بعد ذلك عام ٩٤٠هـ/١٥٣٤م«١٦» أ ب ت أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث. ستيفن هيمسلي لونكيرك، المفتش الإداري في الحكومة العراقية سابقا. ونقله إلى العربية جعفر الخياط. دار الرافدين. الطبعة الخامسة..

وزار سليمان القانوني كلا من ضريح عبد القادر الكيلاني « الحضرة القادرية »وتقع وسط بغداد وقبة موسى الكاظم ومحمد الجواد وأمر بإكمال بناء إسماعيل الصفوي على قبر موسى الكاظم، ثم أوقف مقاطعات مغلة للمقاصد الدينية، الشيعية والسنية على السواء.. كما أعاد بناء ضريح أبي حنيفة النعمان وارجاع الجثة التي كانت مخفية، وأعاد بناء قبة فخمة للضريح، وقد كان الصفويون قد هدموا القبة والضريح ودنسوا مكان الرفات"١٦" أ ب ت أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث. ستيفن هيمسلي لونكيرك، المفتش الإداري في الحكومة العراقية سابقا. ونقله إلى العربية جعفر الخياط. دار الرافدين. الطبعة الخامسة..

بقيت الأوضاع بالعراق هادئة تحت حكم العثمانيين حتى عام ١٠٣٣هـ/ ١٦٢٣م عندما انتهز الشاه عباس الصفوي تغلغل العثمانيين في أوروبا وحروبهم مع النمسا والمجر، فعاد إلى مهاجمة بغداد، ودخلها بنفس العام"١٨" تاريخ الدولة العثمانية، محمد فريد بك، ص١٢٠.

يقول الباحث العراقي الدكتور علي الوردي متحدثاً عن حكم الصفويين لإيران والعراق:«يكفي أن نذكر هنا أن هذا الرجل (الشاه إسماعيل الصفوي) عمد إلى فرض التشيع على الإيرانيين بالقوة، وجعل شعاره سب الخلفاء الثلاثة / أبو بكر وعمر وعثمان/ وكان شديد الحماس في ذلك سفاكاً لا يتردد أن يأمر بذبح كل من يخالف أمره أو لا يجاريه وقيل أن عدد قتلاه ناف على ألف ألف نفس«١٩» لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، د. علي الوردي، ج١، ص٤٣..

أما بالنسبة لرأي الحوزة العلمية في النجف وهي بمثابة أعلى سلطة دينية شيعية حيث يتواجد العديد من مراجع الشيعة الدينيين الكبار فقد كان بشكل عام موقفاً حذراً وسلبياً من الدولة الصفوية ثم القاجارية باعتبارها دولة زمنية لا دينية كما ابتعد كبار رجال الدين ومراجع التقليد الشيعة في النجف عن السياسة ورجال الحكم «٢٠» الشيعة الحاكمون، محمد جواد مغنية صفحة ٩ و ٢٧

حيث كانوا يتبعون المفهوم العبادي لمبدء ولاية الفقيه "٢١" تأريخ الحركة الإسلامية في العراق الجذور الفكرية والواقع التاريخي (١٩٠٠-١٩٢٤)، عبد الحليم الرهيمي - الطبعة الأولى ١٩٨٥م، صفحة ٩٤-٩٦..

١٨ - العراق العثماني

أدى انهيار الدولة الصفوية في إيران سنة ١٧٢٢، وما صاحبه من فقدان للأمن وحروب الأمراء، إلى هجرة أعداد متزايدة من العلماء الشيعة إلى النجف وكربلاء.

وذكر العالم محمد كامل الرافعي في رسالة أرسلها سنة ١٣٢٦ هـ من بغداد إلى صديقه الشيخ محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار، ونشرتها المنار، ما شاهده من قيام علماء الشيعة بدعوة العرب إلى التشيع "٢٢" أصول مذهب الشيعة، د. ناصر القفاري، ج٣، ص١٤٥٠. كما عدد العالم البغدادي إبراهيم فصيح الحيدري (توفي ١٨٨٢ م) عشائر العراق وذكر تاريخ دخول كل منها في المذهب الشيعي في كتابه «عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد » فقال «وأما العشائر العظام في العراق الذين ترفضوا « تشيعوا» من قريب فكثيرون منهم ربيعة ترفضوا منذ سبعين سنة وتميم وهي عشيرة عظيمة ترفضوا في نواحي العراق منذ ستين سنة.»، ويقول «والخزاعل ترفضوا منذ أكثر من مئة وخمسين سنة، وهي عشيرة عظيمة من بني خزاعة فحرّفت وسميت خزاعل وعشيرة زبيد وهي كثيرة القبائل وقد ترفضت منذ ستين سنة بتردد الرافضة إليهم وعدم العلماء عندهم ومن العشائر المترفضة بنو عمير وهم بطن من تميم والخزرج وهم بطن من بني مزيقيا من الأزد، وشمر طوقة وهي كثيرة، والدوار والدفافعة. ومن المترفضة عشائر العمارة آل محمد وهي لكثرتها لا تحصى وترفضوا من قريب وعشيرة بني لام وهي كثيرة العدد وعشائر الديوانية وهم خمس عشائر: آل أقرع، وآل بدير، وعفج، والجبور، وجليحة ومن عشائر العراق العظيمة المترفضة منذ مئة سنة فأقل: عشيرة كعب وهي عشيرة عظيمة ذات بطون كثيرة»٢٣» عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد، إبراهيم الحيدري، ص١١٢-١١٨ ومع ذلك بقيت العديد من عشائر العراق سنية.

وعن تأثر العراق بإيران يقول الوردي: «بعد أن تحولت إيران إلى التشيع، أخذت تؤثر في المجتمع العراقي تأثيراً غير قليل. فقد بدأ التقارب بين الإيرانيين وشيعة العراق ينمو بمرور الأيام. وصارت قوافل الإيرانيين تتوارد تباعاً إلى العراق من أجل زيارة العتبات المقدسة (عند الشيعة) أو طلب العلم أو دفن الموتى وغير ذلك»٢٤». لمحات

اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، د. علي الوردي، ج١، ص١٢.

يقول فرهاد إبراهيم أستاذ العلوم السياسية بجامعة برلين في كتابه «الطائفية والسياسية في العالم العربي» موضحاً أثر تشيع هذه القبائل في جعل الشيعة أكثرية في العراق، فيقول (ص٤٤): «المذهب الشيعي لم ينتشر بصورة كبيرة في العراق إلا تحت حكم المماليك (١٧٤٣-١٨٣١)». ويقول في (ص٤٥): «أثّرت الدعاية الشيعية وذكر الظلم الذي تعرضوا له ومقتل الحسين في كسب القبائل ونشر التشيع». ويضيف في (ص٤٨) أن جماعات السكان من الشيعة من منطقة بلاد ما بين النهرين كانوا يشكلون منذ هجرة القبائل العربية من شبه الجزيرة أعداداً قليلة، وذلك في الفترة منذ القرن السابع عشر وحتى القرن التاسع عشر، ولم يشكل الشيعة الأغلبية في مجموع السكان إلا بعد الهجرة وتحول هذه القبائل إلى المذهب الشيعي. ويقول المؤلف (ص٦٣-٦٤): «إضافة إلى القبائل التي نزحت إلى العراق وتشيعت، فإن هناك الفرس والفرس المستعربين والهنود يشكلون نسبة غير ضئيلة من مجموع السكان الشيعة خاصة في المراكز الحضرية. وكانت هجرة رجال الدين الشيعة وعدد آخر من جماعات السكان إلى العتبات المقدسة قد جاء نتيجة لانهيار الدولة الصفوية. وظلت هذه الهجرات تتوالى حتى نشأة الدولة الحديثة في العراق».

وكان انتشار التشيع في جنوب العراق قد تم تحت سمع الدولة العثمانية وبصرها، وبموافقة رجالها في معظم الأحيان."٢٥" إذ إنه منذ أن وصل العثمانيون للعراق، قام سليمان القانوني بإتمام بناء الحضرة الكاظمية، وزار المقامات السنية والشيعية، وأمر بحفر نهر الحسينية لإيصال المياه إلى مدينة كربلاء.

وتحت الدولة العثمانية انفصل الفضاء الشيعي في العراق مديراً شئونه بقدر كبير من الاستقلال. اضف لذلك ظهور الحركة السلفية الوهابية في منطقة نجد واستعدائها للدولة العثمانية لذلك فضل العثمانيون تشييع جنوب العراق لتشكيل سد فكري مانعا انتشار الافكار التي تبناها محمد بن عبد الوهاب وأتباعه في مناطق جنوب العراق بسبب الاتصال العشائري بين جنوب العراق ومنطقة نجد، بينما عمد علماء الشيعة في الحوزة العلمية في النجف إلى نشر التشيع بين قبائل جنوب العراق من أجل إقامة سد بشري ضد هجمات أتباع محمد بن عبد الوهاب على المنطقة. ويذهب إسحاق نقاش إلى أن تشيع القبائل العراقية—التي كانت تشكل ٥٠٪ من سكان جنوب العراق عام ١٨٦٧—لم يكن مخططاً له من قبل الدولة العثمانية وإنما كانت نتيجة غير متصودة لسياسة توطين القبائل التي اتخذها العثمانيون آنذاك.

بالرغم من التواجد الكبير للطائفة الشيعية في العراق فإن العلاقة بين السنة والشيعة كانت طيبة، حيث أن العراقيين عموماً لم يكونوا ينظرون إلى الانتماء الطائفي كعامل أساسي، كما أن العديد من العائلات العراقية هي خليط من الشيعة والسنة معاً. وهذا يوضح قبول العشائر الشيعية بأن يحكم العراق أهل السنة بعد الثورة على الإنجليز، التي شاركت بها العشائر السنية والشيعية على حدٍ سواء وأصدرت المراجع الشيعية في النجف فتوى بالجهاد لتحريك الشارع العراقي لثورة العشرين.

وأثناء الحرب العراقية الإيرانية، كانت الأفكار القومية هي السائدة في العراق وباعتبار أن غالبية أعضاء حزب البعث في العراق كانوا من الشيعة، فقد وصل الشيعة إلى مناصب عالية في الدولة. وكانت سيطرتهم في التعليم والتجارة والاقتصاد واضحة .

١٩ - الطقوس الشيعية

أسس الصفويون في إيران منذ القرن السادس عشر الطقوس الشيعية المعروفة من حيث إقامة مجالس العزاء وإخراج المواكب الحسينية وما أشبه، وانتشرت هناك دون أن تأتي للعراق، فقد كان الولاة العثمانيون يمنعونها من الدخول إلى العراق، واستمروا على ذلك أكثر من قرنين حتى جاء الوالي على رضا باشا عام ١٨٣١ والذي كان بكتاشياً يكن حباً شديداً لأهل البيت والأئمة الإثنى عشر، فكان هذا أول الولاة الذين سمحوا لها. وقبل ذلك كانت تقام مجالس التعزية في السراديب ويجعلون إمرأة تدير الرحى في صحن الدار لكي لا يسمع المارة في الشارع صوت من في المجلس، خاصة في عهد داوود باشا الذي كان متشدداً ضد الشيعة. (علي الوردي، لمحات إجتماعية، ج٢، ص١٠٩.)

وكان أول رجل استطاع أن يقيم مجلس عزاء في العراق من أهل النجف اسمه الشيخ نصار بن سعد العبسي. والظاهر أنه اغتنم فرصة الصلح الذي عقد في عام ١٨٢١ بين داوود باشا وحكومة إيران الذي توسط فيه الشيخ موسى كاشف الغطاء، فأخذ يقيم مجلس التعزية في داره، واقتدى بعض سراة النجف تدريجياً. أما في بغداد فقد بقي المنع سارياً حتى مجيء على رضا باشا الذي انتصر على داوود باشا.

وجرى الولاة بعد علي رضا باشا على سنته، فكانوا يتساهلون في أمر انتشار الطقوس الشيعية، ماعدا مدحت باشا الذي حاول منعها ولكنه لم يوفق، ويقال أنه سأل اسطنبول في أمرها فكان الجواب: «دعهم يفعلون ما يشاؤون ما داموا لا يؤذون

سوى أنفسهم». (علي الوردي، لمحات اجتماعية،ج٢، ص١١٠، نقلاً عن علي الخاقاني (شعراء الغري) النجف ١٩٥٤-ج١٢ ص٣٢٤.)

أما موضوع زيارة الشيعة لقبر الحسين، والأئمة الآخرين، فقد بدأت في مرحلة مبكرة، أي منذ العهد الأموي، والزيارة هذه تحمل معها نوعاً من التبرك بأهل البيت، وقد حاول المتوكل منعها بتدمير قبر الحسين وغمره بالمياه، إلا إنه فشل في ذلك.

وقد رافقت الزيارة مواكب العزاء التي تحمل في طياتها الثورة ضد الحكام. إذ كان الشيعة في حالة ثورة دائمة ضد ظالميهم من الحكام وعلى مختلف المراحل منذ العهد الأموي وحتى عهد صدام حسين. ويفسر الوردي هذه الظاهرة كما يلي: «يزور الشيعة قبر الحسين بمئات الألوف كل عام. ثم يرجعون من الزيارة كما ذهبوا- لم يفعلوا شيئاً غير النواح واللطم. إنهم اليوم ثوار خامدون. فقد خدَّرهم السلاطين، وحوّلوا السيوف التي كانوا يقاتلون بها الحكام قديماً إلى سلاسل يضربون بها ظهورهم وحراب يجرحون بها رؤوسهم. ومن يدري فقد يأتي عليهم يوم تتحول فيه هذه السلاسل والحراب إلى سيوف صارمة من جديد. إنهم لا يحتاجون في ذلك إلا إلى فرد مشاغب من طراز ابن سبأ».

ويضيف: «إن موسم الزيارة في كربلاء يمكن تشبيهه بموسم الحج لكثرة الوافدين إليه. هذا ولكن الزيارة الشيعية تختلف من بعض الوجوه عن الحج، إذ هي تحمل في باطنها بذرة من الثورة الخامدة، ومن يشهد هرج الزوار في كربلاء يدرك أن وراء ذلك خطراً دفيناً...». (علي الوردي، وعاظ السلاطين، ص ٢٥٥).

أجل، أينما وجد الظلم فهناك احتمال الثورة عليه، والشيعة كانوا مظلومين في جميع العهود، لذلك فهم في حالة ثورة دائمة. ويشرح الوردي ذلك فيقول: «شبهنا التشيع في وضعه الراهن بالبركان الخامد. فهو قد كان في يوم من الأيام بركاناً ثائراً، ثم خمد على مرور الأيام وأصبح لا يختلف عن غيره من الجبال الراسية إلا بفوهته والدخان المتصاعد منها. والبركان الخامد لا يخلو من خطر رغم هدوئه الظاهري. إنه يمتاز على الجبل الأصم بكونه يحتوي في باطنه على نار متأججة ولا يدري أحد متى تنفجر هذه النار مرة أخرى». (علي الوردي، وعاظ السلاطين، ص ٢٥٥).

وتشير الإحصاءات البريطانية لسكان العراق عام ١٩١٩ م إلى أن نسبة الشيعة في العراق تقدر بحوالي ٥٣٪ من السكان وبعدد يبلغ حوالي الـ ١،٥٠٠،٠٠٠ نسمة من عدد السكان البالغ ٢،٨٥٠،... نسمة. وعام ١٩٣٢ م بلغت نسبتهم ٥٦٪ من عدد السكان.

وقد أدى عدم وجود إحصاء سكاني حديث في العراق يكون أكثر دقة من احصاء عام ١٩٥٧ ، يُظهِر النسب الحقيقية لكل طائفة، إلى التركيز على التوزيعات العرقية وليس الطائفية ولذلك تختلف التقديرات في نسبة كل طائفة وأي منها تشكل الغالبية خاصة بعد تأجيل الاحصاء الذى كان مقررا اجراؤه فى أكتوبر / تشرين أول/ عام ٢٠٠٩ وهو ما جعل الانتخابات النيابية الحاسمة تتم على أسس مختلفة وتم تحديد عدد سكان العراق بحوالى ٣١ مليون نسمة دون تشخيص نسب محددة للطوائف والعرقيات التى يتكون منها النسيج العراقى .

أما التقديرات الغربية فتقول بإن نسبة الشيعة في العراق هي ٦٠٪-٦٥٪، بينما السنة هم ٣٢٪-٣٧٪ وتذكر مواقع غربية أخرى نسبا تجعل نصف مسلمي العراق من الشيعة على الأقل .

وأيا كانت التقديرات العراقية أو الغربية لحجم الشيعة والسنة بالعراق فانه لا توجد فروق واضحة بين المكونين داخل الفسيفساء العراقية .. فعندما تزور عائلة شيعية وأخرى سنية فلا شيىء يداهمك سوى الطيبة والكرم والتسامح .

الطيبة .. تلك الصفة التى لازمت أهل النعمانية الشيعية ووقفت حائلا دون وقوع أى أعمال عنف تستحق التسجيل على مدى أيام المذبحة التزاما بموقف المرجع الأعلى أية الله السيد على السيستانى الذى أعلنه صبيحة يوم الكارثة التى ضربت وحدة العراقيين ودقت الكثير من المسامير فى نعش التعايش الأخوى بين الشيعة والسنة عندما تم تفجير القبة الذهبية لمرقد الامامين العسكريين على الهادى والحسن العسكرى / الامام العاشر والحادى عشر لدى الشيعة الجعفرية/ فى بلدة سامراء السنية التى احتضنت المرقدين مئات السنين وطالما رحب أهلها الطيبون بزوارهما من الشيعة العراقيين وغيرهم حتى بعد الاحتلال الامريكى وسقوط نظام صدام حسين فى أبريل عام ٢٠٠٣ .

الكرم .. تلك الصفة التى تلازم أهل الضلوعية السنية والتى كانت السبيل لدخول عناصر القاعدة إلى المدينة تحت راية الجهاد ضد الاحتلال مستغلين كرم اهلها الطيبيين الذين قدموا الغالى والنفيس لنصرة «المجاهدين » قبل أن تظهر حقيقتهم ونواياهم وينقلب الكرام الطيبون الذين فتحو أبواب قلوبهم قبل دورهم « للمجاهدين» ويتحولوا إلى مقاتلين أشداء ويتمكنوا من طرد عناصر القاعدة بعد تلقينهم درسا اخر بعد دروس الكرم وهو درس « البطولة» التى أصبحت نموذجا يحتذى لتصحيح الأوضاع واصلاح ما أفسده الضيوف المخادعون .

التسامح .. تلك الصفة اللصيقة بأهل ناحية العلم الذين حملوا عبئا ثقيلا

عندما أعدم صدام حسين رجالاتهم وشبابهم من الجبور بتهمة التخطيط لانقلاب عسكرى ضده .. ومع ذلك رفض أحد أبنائهم أن يدفن صدام حسين فى مكان سرى ومارس كل الضغوط واستغل كل العلاقات حتى يعود جثمان صدام إلى مسقط رأسه « تكريت» ويدفن بكرامة كرئيس دولة سابق وزعيم للعراقيين مهما ارتكب من أخطاء .

obeikan.com